الشاعر الاندلسي المجهول

# رثاء الأندلس

## وما يحتويه من العناصر واللمحات التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

نشرت (الرسالة) في الأسبوع الماضي قصيدة رائعة هي رثاء مؤثر للأندلس بقلم شاعر أندلسي مجهول ؛ ومهد لها الأديب المغربي الذي بعث بنصها إلى الرسالة بكلمة ذكر فيها أن هذه القصيدة نشرت بنصها الكامل في الجزائر لأول مرة سنة ١٩١٤ ، وأن صحيفة الزهرة التونسية نشرت منذ أعوام بعض مقاطيعها وطلبت إلى الأدباء أن يدلوا على ناظمها إذا استطاع أحدهم إلى ذلك سبيلا ، ولكن أحدا منهم لم يظفر بالجواب ؛ وأنه عرضها على مؤرخ المغرب الكبير السيد الدكالي السلاوي ، فذكر أن ناظمها ربما كان أبا جعفر بن خاتمة وهو من أدباء المرية كما يستدل من بعض أبياتها ، وأنها ربما كانت من محتويات كتابه المسمى « مزية المرية » الذي توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال ؛ ويرجو الأديب المغربي في خاتمة كلمته أن يوفق أحد الأدباء المشتغلين بالأدب الأندلسي إلى معرفة ذلك الشاعر المجهول فيعلن اسمه

والحق أن القصيدة رائعة مبكية ، وليس من ريب في أن ناظمها أديب كبير وشاعر بارع ؛ ومن حق الأدب أن يُعرف هذا الشاعر المبدع وأن تحقق سيرته ؛ بيد أننا نترك هذا البحث لمؤرخ الأدب الأندلسي في عصر السقوط ؛ وفي رأينا أن أهمية القصيدة ليست في قيمتها الأدبية ، بل إن أهميتها ترجع بوجه خاص إلى ما تضمنته من الاشارات واللمحات التاريخية لحوادث المأساة الأندلسية ؛ وهي بهذا الاعتبار وثيقة تاريخية لها قيمتها ؛ ولهذا رأينا أن نؤثرها بتحليل عناصرها الواقعية ، وإيضاح ما فيها من الاشارات واللمحات التاريخية

وأول ما يجب تحقيقه هو الفترة التي وضعت فيها القصيدة ؛ وفي تعيين هذه الفترة تحقيق للعصر الذي عاش فيه الشاعر ، وللظروف والملابسات التي أحاطت به ؛ وهذه الفترة على ما يبدو من كثير من مقطوعات القصيدة هي الفترة التي تلت سقوط غرناطة مباشرة ؛ ونحن نعرف أن غرناطة سقطت في أيدي النصارى في صفر سنة ٨٩٧ هـ ( ديسمبر سنة ١٤٩١ ) ودخلتها جنود فرديناند الكاثوليكي في الثاني من ربيع الأول ( ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ) ؛ وكانت قواعد الأندلس قد سقطت قبل ذلك كلها تباعاً في أيدي النصارى ؛ فسقطت مالقة في شعبان سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، ووادي آش والمنكب والمرية في أواخر سنة ٨٩٤ هـ (١٤٨٩ م) ، وبسطة في المحرم سنة ٨٩٥ (ديسمبر سنة ١٤٨٩) ، وهي آخر قاعدة أندلسية سقطت قبل غرناطة ؛ أما رندة التي يستهل الشاعر قصيدته بالاشارة اليها فقد سقطت في يد النصارى في سنة ١٤٨٥ (٨٩٠ هـ) ؛ ويبدو من أقوال الشاعر المؤسية عن رندة أنه ربما شهد سقوطها ، وأن هذا الحادث قد ترك في نفسه أثراً عميقاً يتردد بقوة في روعة استهلاله ، وهو أبدع مقطوعة في القصيدة :

أحقاً خبا من جو رُندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها

أحقاً خليلي أن رندة أقفرت ... وأزعج عنها أهلها وعشيرها

وهدت مبانيها وثلت عروشها ... ودارت على قطب التفرق دورها

بل يلوح لنا أن الشاعر ربما كان من أهل رندة وقت سقوطها ، وأن اشارته فيما بعد إلى المرية بقوله :

منازل آبائي الكرام ومنشئي ... وأول أوطان غذاني خيرها

لا يذهب إلى أكثر من أن المرية كانت موطن أسرته ومسقط رأسه ، وأنه قضى بها حداثته الأولى ، وربما كان ذلك حوالي سنة ٨٦٠ هـ ، وأنه وقت سقوط رندة كان رجلا ناضجاً يقف على مجرى الحوادث العامة وقوفاً تاماً

ولنرجع إلى الفترة التي وضعت فيها القصيدة ، فنقول إنه من المحقق مبدئياً أنها كتبت بعد سقوط غرناطة ؛ وليس هناك ما يدل على أنها كتبت لترسل إلى السلطان بايزيد الثاني العثماني كما يظن الأديب المغربي الذي تولى نشرها . ذلك أن رسائل الاستغاثة التي وجهها زعماء الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني ، وإلى الأشرف قايتباي ملك مصر ، وجهت منذ بدء الصراع

الأخير ، أعنى منذ حصار مالقة وقبل سقوطها فى سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ؛ ولكن الاستغاثة لم تغن شيئاً ، وسقطت قواعد الأندلس تباعاً فى يد النصارى على النحو الذى فصلنا [١] ولما اشتد النصارى فى معاملة المسلمين بعد سقوط غرناطة ؛ وأرغموهم على التنصر ، وعصفت بهم محاكم التحقيق ( محاكم التفتيش ) ، كتب بعض كبرائهم إلى بايزيد الثانى فى أواخر عهده يستغيث به ، وذلك حوالى سنة ١٥٠٥ م ، أعنى بعد سقوط غرناطة بنحو أربعة عشر عاماً ، وقد استطال عهد بايزيد الثانى حتى وفاته فى سنة ١٥١٢ م ؛ وقد نقل الينا المقرى هذه الرسالة فى كتابه « أزهار الرياض[٢] » ونقل الينا معها شعرا مؤثراً يصف به صاحب الرسالة عسف محاكم التحقيق ، ويبدو من أسلوب هذه الرسالة والشعر كيف انحدرت اللغة العربية وآدابها فى الأندلس فى تلك الفترة بسرعة مدهشة ، وكيف استطاعت السياسة الاسبانية فى مدى قصير أن تخمد جذوة الشعر والأدب

أما القصيدة التى نحن بشأنها فيبدو أنها كتبت قبل ذلك بحين ، والمرجح أنها كتبت فى سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ هـ ( سنة ١٥٠٠ م ) . ولنا على ذلك أدلة عديدة ، منها قوة القصيدة وروحها مما يدل على أنها كتبت عقب الفاجعة بأعوام قلائل قبل أن يخف وقعها فى النفوس ، وقبل أن تحدث السياسة الاسبانية أثرها فى قتل اللغة العربية ؛ ومنها الترتيب التاريخى الذى اتبعه الشاعر ، فهو يورد الحوادث تباعا بترتيبها التاريخى ، إذا استثنينا اشارته إلى غرناطة ؛ وبيان ذلك أنه يبدأ بالاشارة إلى سقوط رندة ، وقد كانت أول قاعدة سقطت فى أيدى النصارى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥م) كما قدمنا ؛ ثم يتبعها بالاشارة إلى سقوط مالقة فى قوله

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة  قد استفرغت ذبحاوقتلا حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها  وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغربيــة الجنن التى  تقيها فأضحى جنة الحرب سورها

وفى هذا البيت الأخير إشارة فطنة إلى موقع مالقة ومناعتها وكونها كانت حصن الأندلس من الغرب ، فلما سقطت سقطت قواعدها فى يد العدو تباعا ؛ ويشير الشاعر بعد ذلك إلى سقوط بلش مالقة (Velez Malaga) فى قوله :

وبلِّش قطت رجلها بيمينها  ومن سريان الداء بان قطورها
وضجّت على تلك الثنيات جحرها
فأقفر مغناها وطاشــت حجورها

وكان سقوط بلش وهى حصن مالقة من الشمال الشرقى فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ ( ابريل سنة ١٤٨٧ م ) وعلى أثر سقوطها حاصر النصارى مالقة واستولوا عليها فى شعبان من هذه السنة ( أغسطس سنة ١٤٨٧ )

ولما استولى النصارى على مالقة أخذت ثغور الأندلس وقواعدها الباقية تسقط تباعا فى يد النصارى فسقطت المرية والمنكب فى أواخر ( سنة ٨٩٤ هـ — ١٤٨٩ م ) ، وسقطت بسطة فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ ( ديسمبر ١٤٨٩ م ) ؛ ثم استولى النصارى على وادى آش قاعدة مولاى عبد الله ( الزغل ) فى صفر من تلك السنة ( يناير ١٤٩٠ م ) ؛ ويشير الشاعر إلى هذه الوقائع بعد ذلك فى قوله :

وبالله إن جئت المنكّب فاعتبر  فقد خف ناديها وجف نضيرها
وقد رجفت وادى الأشى فبقاعها
سكارى وما استاكت بخمر ثغورها

. . . . . . . . . . . . . . . .

وبسطة ذات البسط ما شمرت بما
دهاها وأنى يسـتقيم شمورها

. . . . . . . . . . . . . . . .

وما أنس لا أنس المرية إنها  قتيلة أوجال أزيل عذارها

ولم يبق بعد سقوط هذه القواعد فى يد المسلمين سوى غرناطة ، وقد سقطت فى يد العدو فى صفر سنة ٨٩٧ هـ ( ديسمبر سنة ١٤٩١ م ) ؛ وإلى ذلك يشير الشاعر خلال ما تقدم :

ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم  قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العــلى حيث الصفات كأنها
من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
على قرار الملك غرناطة التى  هى الحضرة العليا زهتها زهورها

---

(١) راجع تفاصيل هذه الحوادث والمراسلات المؤثرة فى كتابى «مصر الاسلامية» ص ١٣٤ وما بعدها والمراجع
(٢) أزهار الرياض ( طبع تونس ) ص ٥٩ — ٦١.

ترى الأسى أعلامها وهى خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها ... وزائرها فى مأتم ومزورها

فهذا الترتيب التاريخى الدقيق الذى اتبعه الشاعر فى قصيدته ، وروعة نظمه ، وما يبدو خلال قصيدته من عميق تأثره بالحوادث التى يصفها ، مما يدلى بحداثة عهده بالمأساة حين وضع رثاءه المفجع ؛ بيد أن هنالك أيضاً فى قصيدته ما يكاد يعين هذا العهد فى نظرنا وهو قوله :

وجاءت الى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ مالنا قبـل بها ... جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تنجلى إلا بمحو أصـــولها ... ولا تنجلى حتى تحط أسورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أ كنافه مستطيرها

فهذه الاشارات تنصرف فى نظرنا إلى أول محاولة قام بها الاسبان لتنصير المسلمين ، ونقض عهودهم التى قطعوها لهم عند تسليم غرناطة باحترام دينهم وشرائعهم ، وتأمين أشخاصهم وأعراضهم وأموالهم وحرياتهم . وكان ذلك سنة ٩٠٤ هـ ( ١٤٩٩ م ) حينما قرر مجلس الدولة أن يفرض التنصير على المسلمين ، وذلك لأعوام قلائل فقط من سقوط غرناطة . بل يلوح لنا أن الشاعر يشير بقوله :

ألا واستمدوا للجهاد عزائماً ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق ... يدعُ الأعادى سبقها وزئيرها
بأنفس صـــدق موقنات بأنها
إلى الله من تحت السيوف مصيرها

إلى الثورة التى حاولت بعض المناطق الاسلامية أن تقوم بها مقاومة لقرار التنصير ؛ ويلاحظ هنا أن الشاعر يقف عند هذه الواقعة فى الاشارة إلى الحوادث التاريخية مما يدل على أنها آخر حادث أدركه وقت نظم مرثيته ؛ فاذا صح الاستنتاج الذى سقناه على النحو المتقدم ، فانا نستطيع أن نقول إن الشاعر وضع مرثيته كما قدمنا حوالى سـنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ هـ ( نحو سنة ١٥٠٠ م )

هذا ومما يلاحظ أيضاً أن الشاعر قد تأثر فى مواطن كثيرة من قصيدته بالقصيدة الطائرة الصيت التى نظمها سلفه ومواطنه أبو البقاء الرندى فى رثاء الأندلس ، وأنه استمد منه بعض الوحى والمعنى ؛ فقوله مثلاً :

فوا حسرتا كم من مساجد حولت
وكانت الى البيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صوامع أوحشت
وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها

مستمد من قول أبى البقاء فى مرثيته :

حيث المساجد قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

وقوله :

وكم طفلة حسـناء فيها مصونة
إذا أسفرت يسبى العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا ... وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستمد من قول أبى البقاء :

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

وهكذا فى مواطن أخرى . بيد أن شاعرنا يفيض فى نظمه وفى تصويره قوة وطرافة ، وليس من ريب أن مرثيته المفجعة من أبلغ وأروع ما رثيت به دولة الاسلام فى الأندلس

محمد عبد الله عنان

ظهر حديثاً كتاب :
نقد كتاب حياة محمد
للأستاذ عبد الله القصيمى النجدى
فيه بيان الأغلاط العلمية والدينية الواقعة فى كتاب هيكل : ( حياة محمد )
( ويباع بمكاتب القاهرة وثمنه عشرون مليما )